المقاومة المغربية في مدلولها التاريخي وثوابت الوضعية التاريخية للمغرب

محاضرة ألقيت يوم 18 يونيو 1986، يوم المقاومة، في حفل نظمه المقاومون بالمناسبة بالمسرح البلدي بالدار البيضاء.

أيها الاخوان :

يشرفني أن تتاح لي فرصة المساهمة في هذه الذكرى بكلمة أحاول فيها أن أحدد معكم المدلول التاريخي للمقاومة في المغرب، أقصد المدلول الذي يمكن استخلاصه، لا من الجزئيات والأمور الظرفية العابرة، بل من المعطيات العامة والثابتة التي تشكل الأحداث التاريخية في المغرب وتوجهها هذه الوجهة أو تلك.

لن أحدثكم إذن عن المقاومة وبطولاتها ولا عن نشأتها وتطورها ولا عن علاقتها بالحركة الوطنية : الرحم الذي خرجت منه، لن أحدثكم عن تنظيماتها ولا عن رجالاتها ولا عن نجاحاتها ومشاكلها وما آل إليه أمرها.. كل ذلك هو تاريخ المقاومة الذي لم يكتب بعد، هو السجل النضالي الحافل الذي أصبح مع مرور الزمن يتعرض للنسيان والاهمال، وهما مقترنان متلازمان.

فعلًا، تاريخ المقاومة لم يكتب بعد، لم يخلد بعد، لا من طرف المؤرخين ولا من طرف الكتاب المسرحيين والقصاصيين والفنانين والسينمائيين ولا من الرسامين.. ان بطولات المقاومين، وأبناء الشعب المغربي عامة، خلال الكفاح من أجل الاستقلال، جديرة بأن تكون حية في ذاكرة الأجيال من خلال فنون التعبير المختلفة، من كتابة تاريخية إلى مسرح وسينما وقصة وشعر ورسم. الخ إن الشعوب اليوم تخلد بطولاتها وأمجادها بمختلف أنواع التعبير والتسجيل، فلماذا لا ينصرف الكتاب والفنانون والرسامون والسينمائيون في المغرب إلى استلهام المقاومة المغربية : بطولاتها وتضحيات رجالها وانتصاراتها وأمجادها الرائعة ؟

إن المقـاومة المغربية أصبحـت اليوم تاريخاً، أصبحت جزءاً من التاريـخ، إنها تراثنا الحيّ الملتصق بالحاضر، الممثل للمـاضي، الملهم للمستقبل. وإذا كان من الممكـن التماس بعض العذر لرجـال الفكر والأدب والفنّ الذيـن عاشوا خلال السنوات التي تلـت الاعلان عن الاستقـلال، أولًا لقلة عددهم، وثانياً لكون مشاغل أخرى قد أبعدتـهم عن عالم الفكـر والثقافة، فإن رجال الفكر والأدب والفنّ، اليوم، وعددهم أكبر ووعيـهم أعمق، مطالبون بتخليـد هذا التراث النضالي الذي يسـجل كفاحات أبناء الشعب المغربي من أجل الاستقلال والحريـة والكرامة.

لـن أحدثكم، إذن، عن المقاومة من داخلها، فهذا موضوع يجب أن تتوزعه مختلف الاختصاصات وتتعلون فيـه كل الكفاءات الفكريـة والأدبية والفنية. ولمـا كان اختصاصي مرتبطاً أكثر بالأبحـاث النظرية فإن كل ما يمكنني المساهمة بـه الآن، وفي هذا المجـال بالذات، هو القيام بمحاولة أولى، ابتدائيـة ومؤقتـة، للتنظير للمقاومة المغربية كظاهرة تاريخيـة، أي كحدث يندرج في إطار تاريخي عام له ثوابت تحدده وتحكم الأشياء المنتمية إليه، هو الاطار الذي يتحدد به كل شيء في المغرب منذ أن أصبـح وطناً/ دولة، أو دولة/ وطنـاً.

سـأتحدث إذن عن المقاومة، عن حركة المقاومة المغربية من أجل الاستقلال، ضمن إطار عام. وهذا ليس مما يقلل من أهميتهـا، بل بالعكس، إن إندراجها ضمن إطار مغربي عام معنـاه أنها ليست حركة يتيمة، ولا حـركة ردّ فعل مؤقتة، بل معناه أنها حركـة أصيلة تجد كل مقوماتها في تاريخ المغرب نفسه، فهـي إذن جزء من التاريخ، تاريخنا، وتاريخ المنطقة كلها، وليسـت طارئة عليه ولا مستوردة إليه.

ولـكي أبرز أهمية هذا النوع من النظرة العامة لظاهرة المقاومة المغربية سأبدأ بطرح أسئلة، نظرية فعلًا، «فضولية» حقاً، ولكنها هامة وضروريـة فيما اعتقد لفهم تلك الظاهرة، وربـما أن هذه الأسئلة مرتبطة مباشرة بالمحددات الظرفية لحركة المقاومة وجيش التحرير في المغرب، فإني سأبدأ بالتذكير بهذه المحددات، ثم أطرح انطلاقـا منها جملة أسئلة أساسيـة، وسنرى أنها لا تجد جوابها في هذه المحددات الظرفيـة التي تسمـح بالقائها، بل إنمـا تجده في الاطار العام الذي يتحدد به «المغرب التاريخي» أعني كـل ما هو تاريخي في مسيرة الزمن المغربي. والجـواب عن هذه الأسئلـة، وضمن هذا الاطار العام واعتمـاداً عليه هو ما أقصده هنا بـ «المدلول التاريخي» للمقاومة المغربية.

المحـددات الظرفية للمقاومة المسلحة في المغرب، من أجل الاستقلال، معروفة، ولذلك سأكتفـي بالتذكير بأهمها.

نـحن نعرف أن حركة المقاومة المسلحة حركة الفداء وجيـش التحرير، انطلقت في خريف سنة 1953 بعد حـوالي شهرين من نفي الملك الراحل محمد الخـامس. ونعرف أيضـا أن هذه الحركة

قد انتهت عملياً في خريف سنة 1956 مع عودة محمد الخامس وإعلانه عن «انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية». لقد دامت حركة المقاومة، إذن، مدة ثلاث سنوات.. مدة قصيرة في حياة الشعوب ولكنها مع قصرها انجزت مهمتها، حققت الهدف الذي من أجله قامت المقاومة : عودة محمد الخامس والاعتراف بالاستقلال. وبذلك كان المغرب على رأس الدول الافريقية التي حققت استقلالها بانتزاعه انتزاعاً، وبواسطة السلاح. وهذا الانجاز السريع لأعظم هدف يمكن أن يضعه شعب أمام عينيه في ذلك الوقت، الانجاز الهائل الذي حققته حركة المقاومة وجيش التحرير، هو بدون شكّ، نتيجة لفعالية تنظيمات المقاومة وبطولات رجالها ومؤازرة الشعب لها. ولكن هذا الانجاز نفسه، وحركة المقاومة نفسها تحددهما معاً جملة معطيات ظرفية من أبرزها :

1 ــ إن حركة المقاومة والفداء التي انطلقت في خريف 1953 كانت تتويجاً للكفاح الوطني ولعمل الحركة الوطنية التي منها خرجت المقاومة والتي ترجع انطلاقتها الرسمية إلى عام 1930 وحققت قفزة نوعية عام 1944 لتأتي حركة المقاومة المسلحة عام 1953 كنقلة نوعية أخرى.. ولكن دائما على نفس المسار.

2 ــ إن حركة المقاومة والفداء لم تكن فقط تتويجاً للكفاح الوطني الذي قادته الحركة الوطنية منذ الثلاثينات، بل كانت أيضا تتويجاً للتطور الداخلي الذي عرفته هذه الحركة نفسها، الحركة الوطنية. إن الانتقال من «دفتر المطالب الاصلاحية» الذي قدمته الحركة الوطنية الفتية عام 1934 باسم «مطالب الشعب المغربي» وهي مطالب تستهدف خلق وضعية متطورة تمهد للاستقلال، ان الانتقلال من هذه «المطالب» إلى «عريضة الاستقلال» عام 1944، العريضة التي ترفض المحاولات الاصلاحية الجزئية وتطالب بالاستقلال، جاء نتيجة لنموّ الحركة الوطنية وانتشارها، نمواً وانتشاراً، مكنا من تجذر الحركة داخل صفوف الجماهير وظهور قيادات محلية وإطارات وسطى من أبناء الطبقات الشعبية، مما أعطى لقيادة الحركة الوطنية، التي كانت في الأصل نخبة مثقفة تنتمي إلى الارستقراطية المدينية، قاعدة صلبة يمكن التعويل عليها في مواجهة تصعيد القمع الذي تمارسه سلطات الحماية.. وبالمثل فالانتقال من عريضة 11 يناير 1944 إلى الكفاح المسلح عام 1953 كان نتيجة لتطور وعي هذه الأطر الشعبية الشابة داخل الحركة الوطنية التي ألقي بقيادتها السياسية في السجون، خصوصاً بعد أزمة 1951 التي توجتها سلطات الحماية بحادث 20 غشت 1953، حادث نفي محمد الخامس وتنصيب آخر غير شرعي مكانه. إن هذه الأطر الوطنية، الشعبية الشابة، قد وجدت نفسها مضطرة لحمل الأمانة، أمانة القيادة بعد اعتقال القيادة التقليدية، وفي نفس الوقت وجدت نفسها مضطرة كذلك إلى

الـردّ على التحدّي، الذي قامت به سلطات الحماية بعزل محمد الخامس الملك الشرعي، بعمـل تاريخي يكون في مستوى هذا التحدي.

وإذن، فحـركة المقاومة، حركة الفداء وجيش التحرير، كانت حلقة من سلسلة العمـل الوطني، السلسلة المتصلة الحقـات انطلاقا من 1930. نـعم إن هذه السلسلة تمتد إلى ما قبل 1930، إلى ما قبل الحركة الوطنية السياسيـة، إلى ما كـان قبلها من أعمال تدخل في إطار مقاومـة الاحتلال، قبل معاهدة الحمـاية وبعدها، ولكننا نتحدث هنا عن المحددات الظرفية المباشرة، وهي محددات تبدأ سلسلتها، كما هو معروف، انطلاقاً عن 1930. أما المحـددات التاريخية العامة فسنتحدث عنها بعد قليل، وهي موضوعنا هنا.

3 ــ وكـما تتحدد حركة المقاومة وجيش التحرير بمحددات ظرفيـة وطنية تتحدد أيضا بمحددات ظرفيـة خارجية. هنـاك على سبيل المثال، لا الحصر : ظروف ما بعد الحرب العـالمية الثانية وقيام الأمم المتحدة، تأسيس الجامعـة العربية سنة 1945 واستقلال معظـم دول الشرق العربي، وتأسيس «مكتب المغرب العربي» بالقاهـرة عام 1947 «ولجنة تحرير المغربي العربي» برئاسة محمد بن عبد الكريم الخطابي، في نفس السنة. وهناك أيضا الثورة المصريـة 1952 واتجاهـها التحرري وتوجهاتـها العربية وبالتالي دور مصـر جمال عبد الناصر، دورها الاعلامي والمادي (سلاح... الخ). وأخيرا وليس آخرا هناك أيضا دور الاحرار الفرنسيين داخل المغرب وخارجه (في فرنسا) وما كـان قد آلت إليه الجمهورية الفرنسية الرابعة.

كـل هذه المعطيات كانت تحدد ظرفياً المقاومة المغربية من أجل الاستقلال.

غيـر أن هذه المعطيات الظرفية، الداخلية والخارجية، إذ كانت تفسر الخصوصيـة الظرفية للمقاومة المغربية، الخصوصية التي تتلخص في نجـاح هذه المقاومة في تحقيق هدفـها بفعالية قصوى وفي أقصر مدة، وأيضا بأقل خسارة، فإنها لا تفسـر أو على الأقل لا تكفي وحدها في الاجابـة على أسئلة تتعدى هذه الخصوصية الظرفية، من نوع الأسئلة التالية :

1 ــ مـا الذي مكّن المقاومة المغربية 1953 ــ 1956 من خصوصيتها الظرفية تلك ؟ ما الذي جعلهـا فعالة، عامة، سريـعة التطور، شعبية إلى أبعد حدّ، في وقت لم تـكن فيه حركات المقاومة التي من هذا النوع قد انتشـرت بعد في العالم الثالث ــ المستعمر آنذاك ؟ إذن كيف نفسر هذه الخصوصية : خصوصية الفعالية والشمول في المقاومة المغربية، موضوع حديثنا ؟

2 ــ لمـاذا كانت حركة المقاومة في المغرب، وهي التي حققت الاستقلال، حركة التحرير الوحيدة التي لم تستلم زمـام السلطة بعد الاستقلال ؟ نحن نعرف أن جميع حركات المقاومة والتحرير في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية انتهت كلها تقريبـاً إلى تسلم السلطة، أما في المغرب فلم يحصـل

شيء من هذا ؟ وأكثر من ذلك بقيت المقاومة المغربية غير ممثلة، بصورة من الصور، في الحكومات الائتلافية التي تشكلت بعد اعلان الاستقلال ؟ كيف نجيب عن هذا السؤال ؟

3 ــ لماذا حصرت حركة المقاومة وجيش التحرير في المغرب أهدافهما في شيئين اثنين : عودة محمد الخامس والاعتراف بالاستقلال ؟ وبعبارة أخرى لماذا لم تطرح حركة المقاومة أية آفاق نظرية اجتماعية أو سياسية ؟ لماذا بقيت بدون برنامج سياسي اجتماعي ؟

4 ــ لماذا لم تتحول حركة المقاومة وجيش التحرير بالمغرب، عقب الاستقلال، إلى حزب سياسي، بل بالعكس لقد بقيت إطاراً عاماً يضمّ المقاومين بصفتهم مقاومين، بقطع النظر عن انتماءاتهم السياسية الحزبية أو اللا حزبية ؟ كيف أمكن، إذن، أن بقي رجال المقاومة، وجيش التحرير في المغرب محافظين على وضعهم وإطارهم الخاص، إطار المقاومة، مع احتفاظ كل منهم بحرية الانتماء السياسي إلى هذا الحزب أو ذاك أو إنشاء حزب لا يحمل اسم المقاومة، بل يندرج ضمن إطار الأحزاب القائمة، السياسية.

5 ــ لماذا لم تندمج حركات المقاومة وجيش التحرير في كل من المغرب والجزائر وتونس ضمن حركة واحدة، خصوصا بعد سنة 1954 ؟ وهل كان من الممكن تاريخياً تحقيق مثل هذا الاندماج ؟

هذه الأسئلة ليست أسئلة سياسية، لا علاقة لها بسياسة الحاضر، بل هي أسئلة نظرية موجهة إلى التاريخ. وهذا ليس هروباً مني من الحاضر وسياسته، كلا. بل لأن جواب هذه الأسئلة لا نجده في الحاضر، حاضر اليوم وحاضر المقاومة وحاضر الحركة الوطنية التي منها انبثقت.. بل هو جواب لا نجده إلا بطرح السؤال على التاريخ : تاريخ المغرب، أعني خصوصيته التاريخية، وإذا شئتم قلنا : ثوابته التاريخية.

لننتقل إذن إلى هذه الثوابت التي يتحدد بها ومن خلالها المدلول التاريخي لحركة المقاومة موضوع حديثنا.

* * * *

تتحد المقاومة المغربية، أعني حركة المقاومة وجيش التحرير لسنوات ١٩٥٣ ــ 1956، مثلها مثل أي حدث آخر ذي شأن في المغرب بما يمكن أن نطلق عليه : ثوابت وضعية التاريخية للمغرب. هذه الثوابت معروفة عند المؤرخين النابهين، والمغاربة جميعا يعيشونها في وجدانهم، في لا شعورهم، وأيضا داخل مخيالهم الجماعي، ولكن دون أن يروا حاجة في الافصاح عندها ومهمتنا هنا ليس تحليل هذه الثوابت، بل سنقتصر على إبرازها وتوجيه الاهتمام إليها.

1 ــ أول هـذه الثوابت هو استمراريـة الدولة الوطنية في المغرب منذ عهد الادارسة، نعم ان تاريخ المغرب، منذ الفتـح الاسلامي، مرتبط أشدّ الارتباط بتاريـخ العرب وتاريخ الاسلام. ولـكن داخل هذا التاريخ العربي الاسلامي، هنـاك وضعيـة خاصة للمغرب بقيـت قائمة ومتميـزة باستمرار، وقد بدأت هذه الوضعيـة تتبلـور بوضـوح مع الأدارسـة مع نهاية القرن الثاني للهجـرة حينما كانت الدولة الوطنية المغربية آخذة في التشكل، وذلك من خلال إعلان استقلالها عن دولة الخـلافة في بغداد، ثم الدخول مع الدولة الأموية في الأندلس في عـلاقة الندية والتنافس وعدم الاستسلام لضغوط الدولة العبيدية الفاطميـة في تونس.

لقد تشكـلت في المغرب إذن، من خلال التغاير مع العباسييـن والفاطمييـن والأمويين في الأندلس دولة قائمة الذات تدخل في علاقة الندّ للندّ مع دول عصرهـا. وهذه الدولة كانت دولة وطنية، بمعنى أن القائمين بها كـانوا من سكان المغرب أنفسهم ولم يكونوا قطّ «دخلاء» على المغرب، لا من المحتلين ولا من الغزاة.. ولا حتى من «المهاجرين».. لم يخضع المغرب قطّ لحكم «أجنبي» كحكـم البويهيين أو السلجوقيين في بغداد، أو الممالك في مصر أو الأتراك في الجزائر وتونس وغيرهمـا من البلاد العربية الأخرى. الدولة في المغرب كانت دائما من أبـناء المغرب.. كانت دولة من المواطنين المغاربة. وحتى المولى ادريس فقد قدم إلى المغرب كفرد. وقد قامت الدولة الادريسيـة على ساعد القبائل التي اتخذت منه رمزاً دينياً، وبالتالي زعيماً سياسياً يرأس دولتها هي، وليس دولته هو. ولذلك كانت الدولة الادريسية دولة سُنية، أي على مذهب المغاربة وليس على مذهب ادريس الشيعي. وعلى كلّ، فإن الدولة المغربية إنما برزت مكتملة الكيّان قوية السلطان مع المرابطين الذين نضجت على يدهم «ثوابت الوضعية التاريخية في المغرب» وفي مقدمتهـا الدولة الوطنية المغربيـة.

وهـذه الدولة الوطنيـة المغربية استمـرت منذ الأدارسة إلى اليوم، على شـكل سلسلة متصلة الحلقات قد يتخللها ضعـف ووهن، ولكنهـا لم تعرف قطّ انقطاعاً. فلم يخضـع المغرب بعد الأدارسة لا للخلافـة العباسية ولا للخلافة الأموية في الأندلس ولا للخلافة الفاطميـة ولا للخلافة العثمانية، وأكثر من ذلـك كان آخر دولة استعمـرت، وبموجب عقد حماية وليس بموجب هزيمـة عسكرية أو انفكاك داخلي. وفوق ذلك كـان المغرب لا أقول أول دولة استقلـت، بل أقول أو دولة استرجعـت استقلالـها في أقصر مدة وبأقل خسارة.

2 ــ وإلـى جانب استمرارية الدولة الوطنية في المغرب هناك ثابت آخر مرتبط بالأول هو : **ثبات الرقعة الجغرافية** لما يمكن أن نسميه **بالمغرب/ الأصل**، وتحرك الرقعة الجغرافية لما يمـكن أن نسميـه **بالمغرب/ المجال الحيوي**. **المغرب/ الأصل** : مغرب الحدّ الأدنى الذي لا يقبل النقصان هو «المغرب الأقصى» كـما كان يحده المؤرخون، ضمن حدود ثابتة : المحيط الأطلسي غرباً، البحر

الأبيض المتوسط شمالًا «ما وراء ملوية إلى تلمسان» شرقاً، القبائل الصحراوية جنوباً : أقول : «القبائل الصحروايا» لأن الصحراء لا تعرف الحدود الجغرافية، بل الحدود فيها بشرية تقوم على الولاء. والقبائل المغربية ـــ التي كانت تدين بالولاء للسلطة المركزية في المغرب، ضاربة في أعماق الجنوب، الغربي والشرقي، بدون حواجز.

وإلى جانب هذه الرقعة الجغرافية التي يتحدد بها المغرب/ الأصل، كانت حدود المغرب تنفتح شمالًا لتضمّ الأندلس وشرقاً لتضمّ المغرب الأوسط والأدنى إلى برقة، وهذه الحدود كانت مفتوحة دوماً جنوباً إلى السودان ووادي السينغال : إما جهادا ونشراً للاسلام، وإما تجارة، وإما إقصاء لخطر التدخلات المناوئة والثورات التي كانت تنشب دائما في «الأطراف»، كما هو الشأن بالنسبة للدول «العظمى» قديماً، أي الامبراطوريات.

وواضح أن ثبات الرقعة الجغرافية للمغرب/ الأصل هو الذي يعطي للدولة المغربية محتواها الوطني. فالدولة في المغرب لا تكون دولة معترفا بها إلا إذا كانت «وطنية»، بمعنى أنها تضمّ كل هذا «الوطن» الذي يشكله المغرب/ الأصل، وفي ذات الوقت تمتد باشعاعها وتطلعاتها إلى ما وراءه، متطلعة إلى وحدة أوسع ومهما كان الأمر، وسواء قعدت الدولة في المغرب عند حدود المغرب/ الأصل كما ذكرناها أو اشرأبت إلى ما وراءه، فإن الدولة في المغرب لا تكون دولة معترفا بها من طرف المغاربة إلا إذا كانت وطنية بهذا المعنى وليس دولة جهة من جهات المغرب/ الأصل وحدها. الاعتراف الفعلي بالدولة في المغرب لا يتم إلا عندما تصبح عمليا وفعلياً دولة المغرب/ الأصل كله.. ومن هنا الثابت الثالث من ثوابت الوضعية التاريخية للمغرب.

3 ـــ الثابت الثالث إذن، **هو الشرعية الوطنية للدولة في المغرب**. نعم، هناك الشرعية الدينية دوماً، وهي لم تكن موضوع نقاش منذ أن توطدت الدولة الوطنية في المغرب : المغاربة كلهم مسلمون سنيون مالكيون، فلا طوائف ولا أقليات وإنما شعب واحد، ومذهب ديني واحد، وبالتالي فالدولة دوما دولة اسلامية سنية ووطنية.

وإذن، فلم تكن الشرعية الدينية، في يوم من الأيام، موضوع نقاش، ولكن اكتسابها كان يتطلب دوماً **الشرعية الوطنية**. والشرعية الوطنية، كانت تكتسب بالبيعة والبيعة كانت تقوم دائما، إما ضمنياً في ظروف السلم والهناء وإما صراحة في ظروف الأهوال والشدائد، على شروط ثابتة لعل أهمها ما يلي :

أ ـــ حماية حدود المغرب ضمن رقعته الجغرافية الثابتة، أي تحقيق الوحدة الجغرافية/ الوطنية، للمغرب/ الأصل والحفاظ عليها.

ب ــ تحقيق وحدة السلطة، وحدة الدولة الوطنية، الشيء الذي يعني رفض الكيانات الجهوية، رفض الانقسام. وعندما تقوم فتنة أو ثورة وتظهر إمارات متنافسة متناحرة فالاعتراف بشرعية الواحدة منها لا يتم إلا بعد أن تحقق وحدة السلطة في المغرب ككل، حينئذ تصبح جديرة بأن تقود الدولة الوطنية في المغرب.

ج ــ مراعاة التوازنات المغربية الخاصة. ذلك أن المغرب إذا كان «بلاد الثوابت» فهو أيضا «بلاد التوازنات»، بل «التوازنات» ثابت من ثوابت وضعيته التاريخية. فكما أن المغرب متعدد ومتوازن جغرافياً : بحار، سهول جبال، صحراء.. فهو كذلك متعدد ومتوازن سكانياً واثنياً. وبالتالي فالشرعية الوطنية للدولة المغربية هي في عدم الاخلال بهذه التوازنات. وقد اثبتت الحوادث والتجارب، في الماضي البعيد، كما في الماضي القريب، أن اليد الواحدة لا يمكن أن تصفق في المغرب. هناك أربع أياد في المغرب : يد الشمال، ويد السهول، ويد الأطلس ويد الجنوب، ويجب أن تكون هذه الأيدي حاضرة كلها، بصورة من الصور، لكي يتم شيء ذو بال في المغرب.. إنها يد الوطنية المغربية، يد الجماعة التي ترفض التجزئة في أي ميدان.

4 ــ والثابت الرابع، الذي نريد إبرازه ضمن ثوابت الوضعية التاريخية في المغرب، ذو شقين متلازمين مترادفين : هناك من جهة **الطابع المحارب للدولة المغربية**، وهناك من جهة **الطابع المقاوم للشعب المغربي**.

الدولة في المغرب هي **دوما دولة محاربة**، هي دائما تخوض حروباً لا تهدأ، حروبا خارجية، إما في صورة جهاد، كالجهاد في الأندلس أو نشر الاسلام في الجنوب (السودان.. الخ) وإما في صورة دفاع عن النفس وحماية الثغور من المهاجمين من الشرق، كهجومات الأتراك أو من الغرب والشمال، كهجومات الدول الأوربية (اسبانيا والبرتغال خاصة).. وإلى جانب هذه الحروب الخارجية كانت الدولة في المغرب تواجه باستمرار منافسين وخصوماً في الداخل، عندما تخلّ ــ أو تختل بسبب من الأسباب ــ بالتوازنات المغربية الخاصة، مما يجعل شرعيتها الوطنية تغدو موضوع نقاش ويجعل وجودها بالتالي موضوع اعتراضات..

وكما أن الدولة المغربية هي دوما دولة محاربة، فالشعب المغربي أيضا شعب مقاوم : يقاوم الغزاة والمهاجمين من الخارج، مع دولته أو بدونها، ويقاوم الدولة نفسها عندما تنتهك الشرعية الوطنية المبررة لوجودها. وهكذا فمنذ القرن الخامس عشر الميلادي، أي منذ سقوط الأندلس، أصبح المغرب هدفاً لانتقام وغزوات الأوربيين الذي ركزوا حملاتهم على الشواطيء وثغورها. ولقد كان على الجماهير المغربية وقياداتها المحلية، الدينية والوطنية، كما كان على السلطة المركزية نفسها، ردّ هجمات المهاجمين وتحرير النقاط المحتلة هنا أو هناك، والعمل التواصل على حماية الشواطيء

وردّ هجمات المعتدين.. فكانت المقاومة المغربية مستمرة متواصلة، براً وبحراً، منذ القرن الخامس عشر..

5 ــ وأخيراً، وليس آخراً، يمكن أن نبرز **العلاقة الجدلية بين البادية والمدينة في عملية** التغيير والمقاومة، كثابت من ثوابت الوضعية التاريخية للمغرب، هذه الجدلية لاحظها ابن خلدون وبنى عليها تفسيره للتاريخ الاسلامي ككل، وبكيفية خاصة شيد عليها نظريته في قيام الدول وسقوطها، وخلاصة هذه النظرية أن قيام دولة جديدة (أو «مستجدة» حسب تعبيره) مكان أخرى قائمة (أو «مستقرة» كما يقول) كان يتم في الغالب عبر ثورة تقوم بها البادية بقيادة ارستقراطية قبلية تقليدية أو جديدة ناشئة، وعندما تنجح في القضاء على الدولة القائمة وتؤسس دولة جديدة تقوم المدينة بقيادة الارستقراطية السائدة فيها بالمبايعة للدولة الجديدة، ثم تبقى هذه الارستقراطية المدينية محافظة على وضعها الاجتماعي، فتمارس وظيفتها كطبقة مسيرة تملك سلطة المال والعلم والجاه والحسب وتمارس هذه السلطة في ظلّ «حاكم الزمان» وباسمه، حتى إذا بلغه «الترف والنعيم» حسب تعبير ابن خلدون، وانغمس فيه هو وذووه «فسدت عصبيتهم» وانفردوا بالمجد دون سائر التحالف القبلي الذي تأسست عليه دولتهم، فيكونون بذلك قد أخلوا بالتوازن، وتأتي النتيجة المحتومة، وهي قيام ثورة جديدة من البادية مرة أخرى.. وهكذا..

* * * *

هذه الثوابت الخمس الخاصة بالوضعية التاريخية للمغرب ككل، أردنا إبرازها لننظر على ضوئها إلى المقاومة المغربية، مقاومة 1953 ــ 1956 طلبا لمدلولها التاريخي.

لنتساءل إذن :

كيف عملت هذه الثوابت عملها في هذه المقاومة، في تركيبها وفاعليتها وأهدافها ووضعها التاريخي ؟

وبعبارة أخرى : لنلتمس الآن في هذه الثوابت الجواب على الأسئلة «الفضولية» التي سبق أن طرحناها بخصوص هذه المقاومة.

1 ــ إذا نظرنا إلى حركة المقاومة وجيش التحرير التي عرفها المغرب بين سنتي 1953 ــ 1956، على ضوء الثابت الأول الذي عبرنا عنه بـ «استمرارية الدولة الوطنية في المغرب» فإننا سنتبين بسهولة أن مهمة المقاومة، موضوع حديثنا، لن تكون إنشاء دولة. فالدولة كانت دوماً قائمة وكانت لا تزال قائمة كسلطة شرعية معترف بها بموجب عقد الحماية نفسه. وعندما اعتدت سلطات الاستعمار الفرنسي على هذه السلطة الشرعية، قامت المقاومة من أجل إعادة الأمور إلى نصابها، إلى استعادة السيادة كاملة، أي استعادة السلطة الفعلية للدولة الوطنية المغربية التي

كـانت فرنسا قد فرضت عليهـا حمايتها. وهكذا فعلى العكس من الكثير من حـركات المقاومة والتحرير في افريقيا التي قامت لتنشىء دولة لـم توجد قبل قطّ، أو كـانت قد درست وعفى عليها الزمن، فإن المقاومة في المغرب إنما قامت من أجل استرجـاع الشرعيـة للدولـة الوطنية وفكّ أسرهـا من حماية الأجنبي. وعندما انجزت المقاومـة هذه المهمة بعودة محمد الخامس وإعلان الاستقـلال لم يتردد المقاومـون ولا أعضاء جيش التحرير في وضع السلاح وتسليمـه للسلطة الوطنية الشرعية المسترجعة، وبذلك وضعوا حداً لوجودهم كمقاومين مسلحين، لقد اعتبروا مهمتهـم منتهية في هذا المجـال وعادوا للاندمـاج في المجتمع كل حسب مهنتـه الأصلية أو المهنة التي يختارها.

2 ــ هـذا من جهـة، ومن جهة أخرى، إذا نحـن نظرنا إلى هذه المقاومـة من زاوية الثابت الثاني الذي عبرنـا عنـه بثبات الرقعة الجغرافية للمغرب/ الأصل، نجد أن الرقعـة التي استرجـعت عام 1956 كانت ناقصة جنوباً، سواء الجنوب الغربي أو الجنوب الشرقي، بالاضافـة (إلى سبتة ومليلية)، ولذلك نجد أن المقاومـة التي انهت مهمتهـا في جبال الأطلس والريف والمدن، لأنها أصبحت كلها مناطق تحت السلطة الشرعية المستعادة، فإنها، بالعكس من هذا، كانت ترى أن مهمتها في الجنوب لم تنته وهذا ما يُفسر بقاء جيش التحرير، بل انتقاله إلى الجنوب الغربي لتحرير الساقيـة الحمراء ووادي الذهب وكـان قد حررهما فعلًا عام 1959 ــ 1960، وكذلك للمشاركة، مـع الثـورة الجزائرية في تحرير مناطـق الجنوب الشرقي من المـغرب التي كانت تحت الادارة الاستعماريـة في الجزائر، المناطق الممتدة من تندوف إلى بشـار والقنادسـة وتوات. وهكـذا فالمقاومة التي، وجدت مهمتها منتهية على صعيد استعادة السيادة الوطنيـة الشرعية، قد رأت أن مهمتها لم تنتـه على صعيد استعادة كامل الرقعـة الجغرافية الثابتة للمغرب. فكان بقاء جيش التحرير في الجنـوب الغربي والشرقي إلى 1959 ــ 1960 تجسيمـاً لاخلاص المقاومة المغربية لثوابتها الوطنية التاريخية.

3 ــ أما الثابـت الثالث وهو ما دعونـاه بالشرعيـة الوطنية، فقد ظهر بارزاً في تركيب المقاومـة وجيش التحرير، لقد تقمصـت حركة المقاومة وجيش التحرير الشرعية الوطنية تمام التقمـص، الشرعية التي جعلت منها مقاومة وطنيـة فعلًا. وليس جهويـة أو اقليمية. لقد كانت حركة المقاومـة وجيش التحرير لسنوات 1953 ــ 1956 تمثـل المغرب كله بمختلف مناطقه وتوازناته. ولعل من أهمّ عوامل نجـاحها وفعاليتها انها حرصت على أن تكـون كذلك، مقاومة وطنية، في كل أجزاء الوطن. والذين تتبعوا الكيفية التي كانت تؤسس بها تنظيمات المقاومة سيلاحظ بدون شـكّ الجهد الكبير الذي كانت قيادة المقاومة تبذلـه من أجل أن يكون لها خلايـا وفروع في جميـع مناطق المغرب، ومن أجل أن تكـون جميع عناصر التوازن المغربي حاضرة وفاعلة. وعندما أسس جيش التحرير في الشمال ظهر منذ المرة الأولى كجيـش وطني يمثل المغرب كله من سوس إلى فجيج إلى

الأطلس إلى دكالة إلى طنجة. فكان جيش المغرب كله. ولعل هذا ما أدخل الفزع على المستعمرين. ومن دون شكّ فإن هذا كان من أهم عوامل نجاح المقاومة.. بل إن هذا كان شرطاً ضرورياً لنجاحها، لأن هذا هو ما منحها الشرعية الوطنية والحماية الشعبية والتضامن الجماهيري في كل جهات المغرب.

4 ــ أما إذا نظرنا إلى هذه المقاومة مع الثابت الرابع الذي أبرزنا فيه الطابع المقاوم للشعب المغربي طوال تاريخه، فإننا سنجد أن مقاومة سنوات 1953 ــ 1956 لم تكن حادثاً يتيماً، ولا طارئاً، وإنما كانت حلقة من حلقات المقاومة المغربية على مدى التاريخ. لقد كانت استئنافاً مباشراً لثورة ابن عبد الكريم الخطابي في الريف وموحا حمو الزياني في الأطلس والهيبة في الجنوب.. كانت استئنافاً لهذه الثورات المسلحة وتجاوزاً لها في نفس الوقت. كانت تجاوزاً لها لأنها لم تقيد نفسها بحدود جهة من جهات الرقعة الجغرافية للمغرب. بل كانت من الجميع وإلى الجميع.. ولعل هذا ما جعلها تنتهي إلى النصر ولم تنتكس مثلما انتكست الثورات الجهوية السابقة الذكر.

5 ــ هذه الملاحظة تربطنا مباشرة بالثابت الخامس والأخير والذي عبرنا عنه بجدلية العلاقة بين المدينة والبادية في المغرب. لقد كانت المبادرة في الماضي، في مغرب ما قبل الحماية تأتي من البادية كما شرحنا حسب نظرية ابن خلدون. أما في المغرب الحديث وابتداء من فرض الحماية على المغرب فقد انقلبت الأدوار بفضل تغير الظروف وتطور الوضع التاريخي العام. وهكذا فبمجرد الاعلان عن توقيع معاهدة الحماية جاءت المبادرة من المدينة والبادية معا، فكانت المظاهرات في فاس وكان غضب العلماء وتحركت البادية مما كانت نتيجة استقالة السلطان المولى عبد الحفيظ ندماً على توقيعه لمعاهدة الحماية. وعندما فرضت قوى الاحتلال الفرنسي وجودها في المدن بقيت البادية، وبالخصوص الجبال، تقاوم لمدة عشرين سنة، في الأطلس والريف والجنوب. وقد تزامن انتهاء آخر جيوب المقاومة المسلحة في الجبال بظهور البدايات الأولى للمقاومة الوطنية السياسية في المدن. وعندما بلغت هذه الحركة الوطنية السياسية المدينية أوجها كان لا بد لتحقيق النصر من أن تنتقل إلى البادية وذلك ما بدأ يحصل بكيفية ملموسة ابتداء من أوائل الخمسينات حيث بدأت أعمال المقاومة تظهر، ولو بصورة فردية متقطعة في البادية. وعندما قامت حركة الفداء في المدن ووقفت على رجلها وفرضت نفسها كمقاومة شعبية عام 1953 كان لابد أن تنتقل إلى البادية، إلى الجبال حتى يتم لهاالنصر.. وكان ذلك ما حدث مع قيام جيش التحرير في السنة الموالية 1954.

واضح الآن أن استحضار هذه الثوابت يجعل في الامكان الاجابة بسهولة على الأسئلة التي ألقيناها من قبل.

لقد كان السؤال الأول يتعلق بالعوامل التي جعلت المقاومة المغربية مقاومة 1953 — 1956 فعالة وعامة، والتي مكنتها من تحقيق النصر في أقرب وقت. أما الجواب فواضح : لأنها تمسكت بالشرعية الوطنية وتقمصتها وعملت في إطارها فكانت مقاومة المغرب ككل، ثم أيضا لأنها حافظت على التوازنات المغربية الخاصة وعملت وفق قوانينها، ولأنها ثالثا ربطت بين البادية والمدينة وجسمت جدلية العلاقة النضالية بينهما.

وكان السؤال الثاني يتعلق بعلاقة المقاومة بالسلطة السياسية بعد الاستقلال : لماذا لم تتسلم السلطة الحكومية بعد إعلان الاستقلال ؟ والجواب انها قامت أصلًا لا من أجل إنشاء دولة بل من أجل إعادة الشرعية والسلطة لدولة قائمة. وعندما عادت هذه الشرعية وهذه السلطة بقي المجال الوحيد لعمل المقاومة هو استكمال تحرير التراب الوطني.. وقد بقي جيش التحرير يعمل كذلك إلى أن توقف لأسباب وظروف خاصة : داخلية وخارجية معروفة.

أما السؤال الثالث وهو المتعلق بغياب طرح أية آفاق سياسية واجتماعية من طرف المقاومة، فهذا راجع إلى أن حركة المقاومة لم تكن حركة منفصلة عن الحركة الوطنية، بل كانت التعبير المسلح لهذه الحركة، وبالتالي فالآفاق السياسية والاجتماعية التي كانت تتحرك فيها المقاومة هي نفسها الآفاق التي كانت تتحرك فيها الحركة الوطنية عموماً. والصراع السياسي الاجتماعي الوطني كانت تخوضه المقاومة داخل الحركة الوطنية وليس خارجها.. ولم يتطور الأمر قبل الاستقلال إلى الدرجة التي تسمح أو تفرض خروج هذا الصراع إلى الساحة العامة. ولكن بعد الاستقلال مباشرة خرج هذا الصراع إلى الساحة السياسية العامة.. وكانت الدولة الوطنية قد استعادت جلّ مقوماتها.

وأما السؤال الرابع فقد كنا صغناه كما يلي : لماذا لم تتحول المقاومة إلى حزب سياسي بعد الاستقلال ؟ والجواب واضح : إن المقاومة كانت قوتها في كونها كانت تجسم إجماع الشعب المغربي وتعمل وفقَ قانون التوازن الداخلي للمغرب. ولم يكن من الممكن أن تتحول المقاومة إلى حزب سياسي واحد، لأن الشعب كله لا يمكن أن يتحول إلى حزب سياسي واحد.. وإذن فتكوين حزب سياسي من المقاومة كان شيئا من قبيل عكس المعنى.. لأن معنى المقاومة كان في كونها فوق حزبية.

والسؤال الخامس الذي طرحناه يتعلق بعدم اندماج المقاومة المغربية والمقاومة الجزائرية والمقاومة التونسية في حركة تحرير شعبية واحدة.. وهذا لم يكن ممكناً إلا على صعيد التنسيق المؤقت، ذلك لأن مهام حركة المقاومة في كل واحد من هذه البلدان الثلاثة كانت تختلف باختلاف الوضعية التاريخية لهذه البلدان : مهمة حركة المقاومة في المغرب كانت استعادة الشرعية والسلطة لدولة قائمة ضاربة بجذورها في التاريخ.. أما في الجزائر وتونس فكانت المهمة

شيئاً آخر : إنشاء دولة وطنية لم يكن لها وجود من قبل إلا من خلال حكم أجنبي : حكم الأتراك أو الامارات السابقة على الأتراك. لم يكن من المعقول ولا من الممكن أن يقبل المغاربة بالتضحية بدولتهم الوطنية التاريخية من أجل دولة جديدة مجهولة في المستقبل.. هي دولة المغرب العربي.. التي هي مجرد إمكانية فقط. ولم يكن من الممكن للجزائريين ولا للتونسيين التضحية بحلم المستقبل، حلم إنشاء دولة وطنية، إذن وحدة المغرب العربي لم تكن ممكنة في فترة الكفاح المسلح وهي لن تصبح ممكنة بالفعل إلا عندما تنطفيء الحاجة في الجزائر وتونس إلى توطيد وتأمين الدولة الوطنية الفتية التي انشئت. الوحدة لا تقوم إلا بين دول تقف على أرضية صلبة أرضية التاريخ : أرضية الطمأنينة التاريخية.

وبعد، فإن الثلاثين عاماً الماضية على استقلال المغرب وبالتالي على انتهاء مهمة حركة المقاومة في المغرب هي فاصل زمني يكفي ليجعلنا ننظر إلى هذه الحركة نظرة موضوعية. نظرة تتوخى فهم القوانين التي تحكم ماجريات الأمور في بلادنا من الداخل وبصورة غير مرئية. وذلك ما حاولت أن ألفت النظر إليه في هذه العجالة. وإذا كانت هذه الثوابت قد تحكمت في الماضي إلى حدّ بعيد فلا شكّ أن مفعولها ما زال ممتدا إلى اليوم، وبالتالي فلا بد لكل من يفكر في المستقبل من استحضار هذه الثوابت.

* * * *

وقبل أن أختم أريد أن أطرح سؤالًا يتعلق بهذه السنوات الثلاثين التي مضت : هذا السؤال أصوغه كما يلي : لم تتسلم حركة المقاومة السلطة السياسية في المغرب، مثلما حدث في بلدان أخرى كما أشرنا إلى ذلك قبل : فهل كان هذا هو الأفضل للمغرب.. أم أن العكس هو الصحيح.

أما أنا فأقول : إن من حسن حظّ المقاومة المغربية ومن حسن حظّ المغرب أن حركة المقاومة وجيش التحرير لم تتسلم السلطة فيه بعد الاستقلال.

من حسن حظ المقاومة المغربية لانها لو تسلمت السلطة، لكانت الآن تحمل معها وزر أخطاء السلطة وأخطاء السياسة ومنها أخطاء قاتلة.

من حسن حظّ المغرب، لأن عدم تسلم المقاومة للسلطة السياسية وبقاءها تحمل معها أمجادها الخاصة بها قد جعل منها صوتاً يتمتع دوماً بشرعية الكلام عن المغرب وقضاياه الوطنية حتى في الفترات التي تسكت فيها الأصوات السياسية اختياراً أو اضطراراً.

وهكذا فإذا نحن رجعنا إلى بيانات وملتمسات المقاومين المغاربة بعد الاستقلال، قبل المجلس الوطني المؤقت لرجال المقاومة وجيش التحرير وبعده وإلى الآن، نجد أن صوت المقاومة

المغربية كان حاضراً دوماً، يرتفع كلما دعت الضرورة أن يرتفع، ليطالب بالجلاء، بتحرير ما تبقى من الأراضي المغربية، بتنظيم حياة دستورية ديمقراطية، بالعفو على المعتقلين السياسيين الخ. وأعتقد أن امتلاك المقاومة لشرعية الحديث في هذه ا لقضايا، عند الحاجة، هو أثمن ما يجب أن تحافظ عليه. فمن حسن حظّ المقاومة.. ومن حسن حظّ المغرب انها ــ أي المقاومة المغربية ــ بقيت وفية لماضيها وأهدافها ولمهمتها، محافظة على الشرعية والمشروعية التي تجعل منها لسان الشعب الذي يستيطيع الكلام بدون عقد، بدون خوف.

* * * *

أيها الاخوان :

لقد تحدث حديثاً عاماً، فيه تنظير وفيه تعميم. وهذا النوع من التنظير والتعميم يسمح بتجاوز الجزئيات، لأن معناها ودلالتها إنما هو في الكلّ الذي تنتمي إليه. الكلّ موضوع الحديث.

ولكنني لا أريد أن أختم هذا الحديث دون الاشارة إلى حادثة جزئية تتقمص معنى الكلّ، الكلّ الذي تحدثنا عنه، وهي تجسمه بإيجاز بليغ. والواقع أن الحديث عن المقاومة يوم 18 جوان، يوم ذكرى استشهاد محمد الزرقطوني رحمه الله سيكون ناقصاً إذا لم يبرز فيه اسم محمد الزرقطوني بطل المقاومة. والحديث عن المقاومة المغربية مقاومة 1953 ــ 1956 سيقى ناقصاً إذا لم يبرز فيه اسم محمد الخامس رحمة الله عليه وهو الذي اتخذت المقاومة من عودته هدفاً أساسياً لها.

سأختم إذن بذكر جزئية عن هذين الرجلين الوطنيين المقاومين.

حدثني صديق كان يشتغل في ديوان الملك الراحل محمد الخامس قال : عندما قام الملك المرحوم بزيارة المشرق عام 1960 زار القسم الشرقي من القدس الشريف وكان ما يزال هو والضفة الغربية تحت سلطة المملكة الأردنية. وعندما صعد محمد الخامس والوفد المرافق له في إحدى بنايات القسم العربي من القدس ليطل على القسم الذي احتلته اسرائيل هاله أن يرى الصهاينة يمشون ويمرحون في أمان في شوارع الجزء المحتل من القدس.. فاكفهر وجه محمد الخامس وظهر عليه الغضب والاضطراب والتفت إلى من كان حوله وقال بالدارجة المغربية : «فين الزرقطوني ديالهم.. فين الروداني.. فين المقاومة ديالهم..».

كلمة لا تحتاج إلى تعليق. شكراً على استماعكم والسلام عليكم.